قوائم المحتويات متاحة على ASJP المنصة الجزائرية للمجلات العلمية
الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية
الصفحة الرئيسية للمجلة: www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/552

المنطلقات النّصيّة في التّراث اللّسانيّ العربيّ

Textual Perspectives in the Arabic Linguistic Heritage"

عقيلة أرزقي [1,*]
[1] جامعة البليدة 02، الجزائر..

Key words:
Terminology
Textuality
Heritage
linguistics Arabic.

Abstract

Textual linguistics has transcended the limits of the minor linguistic structure, which is the sentence, to a major linguistic structure, which is the text. The text has been considered a central axis in contemporary linguistic studies that reveals the textual and structural links, as it is the actual unit through which language is achieved in its levels.

Therefore, these research papers tagged with: "Textual Perspectives in the Arabic Linguistic Heritage" seek to shed light on the textual contributions of our ancient scholars in their various grammatical, critical and rhetorical works such as Kisibawayh (d. Those heritage textual glimpses that reveal textual connections.

Based on that, we had the following question: What are the contributions of the ancients in this textual field? Was Arab thought able to come into contact with the textual concepts that are known today?

To answer this, we will follow the descriptive approach as well as the comparative approach, as they are appropriate for such a study.

معلومات المقال
تاريخ المقال:
الإرسال: 2023-03-06
القبول : 2023-05-26

الكلمات المفتاحية:
المنطلقات
النّصيّة
التّراث
اللّسانيّ
العربيّ.

ملخص

جاوزت اللّسانيّات النصيّة حدود البنية اللّغويّة الصغرى وهي الجملة إلى بينة لغويّة كبرى وهي النّص، وقد اعتبر النّص محورا مركزيّا في الدّراسات اللّسانيّة المعاصرة يكشف الرّوابط النّصيّة والبنويّة، باعتباره الوحدة الفعليّة الّتي تتحقّق من خلالها اللّغة بمستوياتها.

لذا تسعى هذه الأوراق البحثيّة الموسومة بـــ: " المنطلقات النّصيّة في التّراث اللّسانيّ العربيّ " إلى إلقاء الضّوء على الإسهامات النّصيّة لعلمائنا القدامى في مختلف مصنّفاتهم النّحويّة والنقديّة والبلاغيّة كسيبويه (ت180هـ)، والجاحظ (ت225هـ)، والجرجاني (ت471هـ) وغيرهم، في محاولة للبحث عن تلك اللّمحات النّصيّة التّراثيّة الكاشفة عن الرّوابط النّصيّة.

وانطلاقا من ذلك، كان لنا هذا التّساؤل التّالي: ما إسهامات القدامى في هذا المضمار النّصيّ؟ وهل استطاع الفكر العربيّ أن يلامس المفاهيم النّصيّة المتعارف عليها اليوم؟

وللإجابة على ذلك، سنتّبع المنهج الوصفيّ وكذلك المنهج المقارن، فهما المناسبان لمثل هذه الدّراسة

* Corresponding author at :University of Blida, ALGERIA.
Email : arezkiakila23@gmail.com

1. مقدمة

لم يكن الدّرس النّصيّ العربيّ بمنأى عمّا أنجزه الدّرس النّصيّ الغربيّ، وبالرّجوع إلى التّراث العربيّ نجد إشارات لمّاحة عن تلك العضويّة النّصيّة أثناء تحليلاتهم اللّغويّة في مختلف مصنّفاتهم، كإشارات سيبويه (ت180هـ)، والجاحظ (ت225هـ)، والجرجاني (ت471هـ) وغيرهم، لذا، تسعى هذه الأوراق البحثيّة الموسومة: بـ: "**المنطلقات النّصيّة في التّراث اللّسانيّ العربيّ**" إلى إلقاء الضّوء على الإسهامات النّصيّة لعلمائنا القدامى في مختلف مصنّفاتهم النّحويّة والنقديّة والبلاغيّة في محاولة للبحث عن تلك اللّمحات النّصيّة التّراثيّة الكاشفة عن الرّوابط النّصيّة، رغم أنّ للغربيّين الفضلَ في تقنين هذا العلم، إلاّ أنّه لا يخفى علينا جهود القدامى الّتي مثّلت البذور الأولى لهذا العلم وإن اختلف التّطابق الملحوظ في المادّة الاصطلاحيّة إلاّ أنّ حضور الكثير من الظّواهر النّصيّة في المدوّنات التّراثيّة يكاد يضارع في تقاسيمه وملامحه نظيره الغربيّ بشكل لافت، ممّا يدّل دلالة لا ريب فيها أنّ مفاهيم هذا العلم كانت مستقرّة في أذهانهم بالشّكل الّذي تجاوز في كثير من المواضع النّظرة النّصيّة الغربيّة.

وانطلاقا من ذلك، كان لنا هذا التّساؤل التّالي: ما إسهامات القدامى في هذا المضمار النّصيّ؟ وهل استطاع الفكر العربيّ أن يلامس المفاهيم النّصيّة المتعارف عليها اليوم؟

وللإجابة على ذلك، سنتّبع المنهج الوصفيّ وكذلك المنهج المقارن، فهما المناسبان لمثل هذه الدّراسة الّتي تسعى إلى إبراز أسبقيّة الدّرس العربيّ من جهة، ومن جهة أخرى تسعى إلى الوقوف على ملمح التّقارب بين المفاهيم النّصيّة العربيّة والغربيّة.

كان لزاما عليّ وأنا أطرق هذا الباب المعرفيّ الوقوف على المصطلح الرّئيس الّذي يتمحور حوله هذا الموضوع قبل الولوج إلى تفاصيل هذه الأوراق، وهذا بيانه:

2ـ مفهوم النّص بين العرب والغرب قديما وحديثا.

يرجع الجذر اللّغويّ لكلمة النّص في المعاجم العربيّة إلى مادّة (نَ صَ صَ) الّتي تعني الرفعة والإظهار، يقال: "نصّ الحديث رفعه... وكلّ ما أظهر فقد نص، ويقال: نص الحديث إلى فلان أي رفعه، وأصل النّص أقصى الشّيء وغايته، ونص الرّجل نصه إذا سأله عن شيء حتّى يستقصي ما عنده، ونصّ كلّ شيء منتهاه"[(1)].

أمّا عن دلالة الكلمة اصطلاحا فنجدها لا تبعد عن حدود الدّلالة اللّغويّة، فهي الأخرى تدور حول الرّفع والظّهور؛ وإن كان يصعب تحديد دلالتها تحديدا جامعا لتعدّد جوانبها الّتي يُنظر من خلالها إلى هذا المصطلح كالجانب الدّلاليّ أو الجانب التّداوليّ، أو الجانب السّياقيّ أو الوظيفيّ، أو الجانب التّواصليّ، وقد شكّلت هذه المنطلقات محاور رئيسة لتحديد نصيّة النّص من عدمها، ومن أهمّ تعريفات النصّ في التّراث العربيّ ما أورده الشّريف الجرجاني (ت816هـ) في كتابه؛ حيث قال: " ما زاد وضوحا على الظّاهر بمعنى في المتكلّم، وهو سوق الكلام لأجل ذلك المعنى، كما يقال: أحسنوا إلى فلان الّذي يفرح بفرحي ويُغَمّ بغمّتي كاننصّ نصا في بيان محبته" [(2)].

وتجدر الإشارة إلى أنّه لم يرد مصطلح "النّص " في المصنّفات النّحاة واللّغويّين المتقدّمين، وإنّما كان يعبّر عنه بالمصطلحات التّاليّة: الكلمة، والقطعة، والقصيدة، والشّعر على نحو ما نجده عند الجرجانيّ[(3)] ، وهذا لا يتنافى مع إدراكهم للدّلالة الاصطلاحيّة، فعدم ظهوره كمصطلح لا يستوجب عدم ظهوره كمفهوم، فالنّاظر في مؤلّفاتهم يدرك بوضوح قراءاتهم الدّقيقة الّتي تدلّ دلالة واضحة على مدى تفطّنهم لمفهومه الاصطلاحيّ.

أمّا عن مفهومه عند الغرب فنجد "فولفغانغ إيزر" يشير إلى صعوبة تحديد مفهومه، إذ يقول: " النصّ الأدبيّ كينونة قابلة للتّعريف، غير أنّه إذا كان شيئا فهو حدث دينامي"[(4)]، وهذه الصّفة الّتي أعطت للنّص تجعله في حركة مستمرّة، وتفتح أمامه قراءات عديدة تتجاوز نظرة الكاتب نفسه، وهو ما نجده في مفهوم النّص عند الناقدة جوليا كريستيفا؛ حيث قالت: " النّص الأدبيّ يخترق حاليا وجه العلم وإيديولوجيا والسّياسة، ويتنطع لمواجهتها وفتحها وإعادة صهرها"[(5)].

ففي عبارة: "ويتنطع لمواجهتها وفتحها وإعادة صهرها" إشارة إلى قراءة النّص بعد تفكيك شفرته، وإعادة بنائه بناءً يتكيّف مع نظرة المتلقي لا صاحب النّص، من منطلق أنّه لم يعد الكاتب يكتب لنفسه، وإنّما لغيره، أمّا روبار دي بوجراند يعرّفه قائلا: "هو تشكيلة لغويّة ذات معنى تستهدف الاتّصال"[(6)]، فالنّص من منظوره وحدة دلاليّة تواصليّة.

ويظهر مّما سبق، الاختلاف الواضح في مفهوم النّص في الدّرس اللّسانيّ الغربيّ نتج عن اختلاف النّظرة الّتي ينظر من خلالها إلى النّص، وهو ما يؤكّده قول سعيد بحيري: لا توجد مصاعب تواجه علماء العلوم مثلما هو الحال بالنّسبة إلى علماء علم لغة النّص؛ حيث أنّه حتّى الآن وبعد مرور ما يربو على ثلاثة عقود على نشأته الفعليّ، لم يتحدّد بدرجة كافيّة، بل إنّه مسمّى لاتّجاهات وتصوّرات غاية في التّباين، وفرع غاية في الاختلاف"[(7)]، ولكنّها تتّفق جميعا في كون النّص مجالا لغويّا واسعا يشكّل وحدة دلاليّة، تجمع بين عناصره علاقات وروابط تُسهم في بنائه بناءً متعاضدا يشدّ بعضه بعضا.

3ـ فكرة التّماسك النّصيّ بين التراثيين والغربيين

تؤلّف فكرة التّماسك النّصيّ بيئة لغويّة تتّصف بالانسجام والتّرابط بين أجزائها تنتظم على نحو خاصّ مشكّلة نسيجا نصيّا متعاضدا، لذا كان التّماسك النّصيّ يشير إلى علاقات تُبنى بطرق عقليّة من أجل تحقيق التّواصل الدّاخلي بين عناصر التّركيب، والتّواصل الخارجيّ مع المتلقيّ.

وفي حديثنا عن هذا القانون البنائيّ، نجد أنّ روبار دي بوجراند قد حدّد سبعة معايير لهذا القانون جعلها شرطا لاستحقاق

صفة النّصيّة، وقد كان من الأوائل المتحدّثين عنها في كتابه " النّص والخطاب والإجراء"؛ حيث قال: " النّص حدث تواصليّ يلزم لكونه نصّا أن تتوفّر فيه سبعة معايير للنّصيّة مجتمعة، ويزول عنه هذا الوصف إذا تخلّف واحد من هذه المعايير"[8]، وهي: السّبك أو الرّبط النّحويّ، الحبك أو التّماسك الدّلاليّ، القصد، القبول أو المقبوليّة، الإعلاميّة، المقاميّة، التّناظر[9].

وبالرّجوع إلى التّراث العربيّ، وبعد استقراء بعضه، نجد من أشار إلي تلك المعايير في مصنّفاتهم في معرض حديثهم عن مسألة من مسائل علم اللّغة أو علم التّفسير، فمجال تحليلهم هو النّص والسّياق سواء السياق المقاميّ أو الحاليّ، فمثلا الإمام الشّافعيّ (ت294هـ) قد تنبّه إلى النّظرة الكليّة للنّص من أجل الوصول إلى الدّلالة الصّحيحة، ويمكننا الاستدلال بقوله؛ حيث يقول: " إنّما خاطب الله بكتابه العرب بلسانها، على ما تعرف من معانيها، وكان ممّا تعرف معانيها اتّساع لسانها، وأنّ فطرته أن يخاطب بالشّيء منه عامّا ظاهرا يراد به العامّ الظّاهر، ويُستغنى بأوّله هذا منه عن آخره، وعاما ظاهرا يراد به الخاصّ...، وظاهرا يعرف في سياقه، أنّه يرد به غير ظاهره، وكلّ هذا موجود علمه في أوّل الكلام أو أوسطه أو آخره، وتبتدئ الشّيء من كلامه بين آخر لفظها عن أوّله"[10]، فهذا قول ينبّه على العلاقة بين مفهوم النّص وجمله وفقراته بعلاقة كليّة، تشكّل بنية شاملة.

هذا، وقد ظهرت تلك الإشارات أيضا عند سيبويه في كتابه عند حديثه عن باب " الاستقامة والإحالة"، إذ أدرج فيه الثّالوث النّصيّ المتكوّن من: المُتكلّم، والمتلقّي، والسّياق مشكّلا بناء موحّدا؛ حيث قال: " هذا باب الاستقامة من الكلام والإحالة، فمنه مستقيم حسن، ومحال، ومستقيم كذب، ومستقيم قبيح، وما هو محال كذب، فأمّا المستقيم الحسن، فقولك: أَتَيْتَ أَمْس، وسآتيك غدا، وأمّا المحال فأن تنقض أوّل كلامك بآخره، فتقول: أتيتك غدا، وسآتيك أمس، وأمّا المستقيم الكذب، فقولك: حملت الجبل ، وشربت ماء البحر، ونحو، وأمّا المستقيم القبيح، فأن تضع اللّفظ في غير موضعه، نحو قولك: قد زيدا رأيت، وكي زيدا يأتيك، وأشباه هذا، وأمّا المحال الكذب، فأن تقول: سوف أشرب ماء البحر أمس" [11].

أمّا في حديث سيبويه عن الإحالة فقد اعدّها أداة من أدوات السّبك، من منطلق أنّها تربط العنصر المحيل بالعنصر المحال إليه، ونجده قد ركّز في ذلك على الإحالة الإشاريّة؛ حيث قال: " وذلك أنّك رأيت صورة شخص فصار آية لك على معرفة الشّخص، فقلت: عبد الله وربيّ، كأنّك قلت: "ذاك عبد الله أو هذا عبد الله"، أو سمعت صوتا فعرفت صاحب الصّوت فصار آية لك على معرفته، فقلت: زيد وربيّ، أو مسست جسدا، أو شممت ريحا، فقلت: زيد، أو مسك، أو ذقت طعاما، فقلت: العسل[12]، وهو المفهوم ذاته لمصطلح الإحالة نجده عند جون لاينز الّذي ذكر المفهوم الدّلاليّ له بقوله: " إنّ العلاقة القائمة بين الأسماء والمسمّيات هي علاقة إحالة: فالأسماء تحيل على مسمّيات" [13].

إنّ هذا القول يثبت الحسّ النّصيّ الّذي كان يتمتّع به سيبويه من خلال عرض تلك الفروق الّتي تتوافق ودلالة النّص في مضمار الدّراسات النّصيّة المعاصرة، فقد ربط النّص بسياقات مختلفة رغبة في التّواصل، وهو بذلك قد تحدّث عن أهمّ المعايير الّتي شكّلت صرح لسانيات النّص، فإشارته إلى مواضع الألفاظ تصبّ في الاتّساق أو ما يُسمّى بالرّبط النّحويّ، وإشارته إلى الإفادة المترتّبة عن جودة الحبك تصبّ في الانسجام أو ما يسمّى بالتّماسك الدّلاليّ، فضلا عن ذلك أشار إلى المقبوليّة الّتي عبّر عنها بهذه المصطلحات: المستقيم الحسن، والمستقيم القبيح، والمحال الكذب وغيرها، ونراه قد تفطّن أيضا في تحديده لمفهوم الإحالة ووظيفتها القائمة على تحديد العلاقة بين العنصر المحيل والعنصر المحال إليه، وهو ما نجده تماما عند الغربيين أمثال هاليداي ورقية حسن[14]، فقد استعمل هذان الباحثان مصطلح الإحالة استعمالا يقترب ممّا كان عند سيبويه، ذلك أنّ العناصر المحيلة كيفما كان نوعها لا تكتفي بذاتها من حيث التّأويل، إذ لا بدّ من العودة إلى ما تشير إليه من أجل تأويلها، وتملك كلّ لغة خاصيّة الإحالة، وهي: الضّمائر، وأسماء الإشارة، وأدوات المقارنة، وقد قسّما الإحالة إلى:

الإحالة[15]: **المقاميَة**:(**إحالة إلى خارج النَص**) **والنَصيَة**: (**إحالة إلى داخل النَص**: **قبليَة وبعديَة**).

كما نجد سيبويه في كتابه أيضا يقدّم إشارات تتوافق مع معايير مختلفة من المعايير الّتي أقرّ دي بوجراند فيما بعد كالاتّساق

وأدواته، والمتمثّلة في الإسناد الّذي يمثّل رابطة بدلالة معنويّة لا يمكن الاستغناء عنها، وقد وضّحها في باب المسند والمسند إليه[16] فالإسناد يمثّل أحد أدوات الاتّساق الّتي تساهم في ربط النّصوص في بناء منتظم سليم، فضلا عن أدوات الرّبط الأخرى كالتّكرار، والحذف، حروف العطف والجرّ وغيرها.

وللجرجاني في هذا المجال باع طويل من خلال نظرية النّظم، فهو يؤكّد من خلالها أنّ النّظم هو توخي معاني النّحو، ووضع الألفاظ موضعها في التّرتيب والتّأليف، وهو ما أكسب كتابه دلائل الإعجاز قيمة نصيّة لا نظير لها في مضمار الدّراسات اللّغويّة، فقد جمع فيه الكثير من العلوم اللّغويّة جامعا فيها بين علم النّحو وعلم البلاغة، فالنّاظر لهذا الكتاب يقف عند الكثير من المفاهيم الّتي جاءت بها لسانيات النّص كالاتّساق والانسجام، ويظهر ذلك من خلال نظريّته.

فقد أدرك يقينا أثر علم النّحو في خدمة النّص؛ حيث قال: " اعلم أنّ ليس النّظم إلاّ أن تضع كلامك الوضع الّذي يقتضيه علم النّحو ، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه الّتي نهجت فلا تزيغ عنها وتحفظ الرّسوم الّتي رسمت"[17]، ويضيف قائلا: " وليس الغرض بنظم الكلم إن توالت ألفاظها في النّطق، بل أن تناسقت دلالتها، وتلاقت معانيها على الوجه

الّذي اقتضاه العقل، فما النّظم إلاّ أن تقتصي في نظم الكلمات أثار المعاني وترتبه على حسب ترتيب المعاني في النّفس"[18]، فمن خلال هذه النّظريّة يمكننا فهم النّص فهما صحيحا، وذلك بالكشف عن أهمّ مباحثه من فصل ووصل، وتقديم وتأخير، وذكر وحذف، وغيرها.

ونراه في موضع آخر كاشفا عن سرّ تركيبة النّص القرآني الّذي يعتمد على الانسجام والاتّساق اللّذين أصبحا من المصطلحات المحوريّة في اللّسانيات النّصيّة المعاصرة، ونراه يشير أيضا إلى قضيّة التّحليل النّصيّ، فقد قال: " تأمّلوا سورة سورة وعشرا عشرا وآية آية، فلم يجدوا في الجميع كلمة ينبوبها مكانها، ولفظة ينكر شأنها أو يُرى أنّ غيرها أصلح أو أشبه أو أذلق، بل وجدوا اتّساقا يبهر العقول، وأعجز الجمهور نظاما وإتقانا وإحكاما"[19].

وما تجدر الإشارة إليه أنّ نظريّة النّظم كانت تسعى إلى إثبات أنّ القرآن الكريم معجز بنظمه وتركيبه، فبلاغته لا ترجع إلى ألفاظه وحدها أو إلى معانيه وحدها، وإنّما تكمن المزيّة فيما بينهما من صلة وارتباط، ليكون ترتيب الكلام في نسيج محكم، وسباكة متينة ليتحقّق الإفصاح وتحصل الفائدة، وفي ذلك قال: " واعلم أنّ ممّا هو أصل في أن يدقّ النّظر، ويغمض المسلك في توخي المعنى الّتي عرفت، أن تتّحد أجزاء الكلام، ويدخل بعضها في بعض، ويشتدّ ارتباط ثان منها بأوّل، وأن يحتاج في الجملة إلى أن تضعها في النّفس وضعا واحدا، وأن يكون حالك فيها حال الباني، يضع بيمينه ههنا، وفي حال ما يضع بيساره هناك"[20].

إنّ اهتمام الجرجاني بالإعجاز القرآني جعلته يضع نظريّة النّظم الّتي تقترب في مفهومها بمفاهيم الدّراسات النّصيّة المعاصرة، فقد عالج فيها الجرجاني قضايا نحويّة وبلاغيّة عديدة، وفي المقام نفسه، أشار أبو بكر الباقلاني (ت404هـ) في كتابه " إعجاز القرآن" إلى النّظرة الكليّة للنّص القرآنيّ، فهو "يسير على نمط متجانس دونما إخلال أو اضطراب أو تفاوت بين سورة وسورة، أو آية وآية، أو موضوع وموضوع"[21]، وقد توصّل الباقلاني إلى أنّ فكرة التّماسك والصياغة الكليّة للكلام لن يصلها البشر[22]؛ ذلك أنّ النّص القرآني يملك قوّة وتأثيرا بتركيبه ونظمه تركيبا ونظما يخرج عن جميع وجوه النّظم المعتاد في كلام البشر، فهو يملك قوّة دلاليّة الّتي تجعل من نظمه نظما مميّزا، يتماسك فيه الأداء اللّغويّ تماسكا منتظما.

ونجد ضياء الدّين بن الأثير (ت637هـ) يجعل النّظم مدار العمليّة الإبلاغيّة، وأنّ المزيّة في تحقيق الجمال والإبداع في النّص القرآني ترجع أساسا إلى التّفاعل النّصيّ وليس إلى المفردات وحدها؛ فقد قال: " ألفاظ القرآن الكريم من حيث انفرادها قد استعملها العرب ومن بعدهم، ومع ذلك يفوق جميع كلامهم، ويعلو عليه، وليس ذلك إلاّ لفضيلة التّركيب"[23]، ويؤكّد القاضي عبد الجبار (ت415هـ) على أهميّة النّظم والاتّساق المحكم لأجزاء النّص قائلا: " الفصاحة لا تظهر في أفراد الكلام، وإنّما تظهر في الكلام بالضمّ على طريقة مخصوصة"[24].

وفي حديث الأصوليين إشارات قيّمة تصبّ في الاتّجاه النّصيّ، كإشارة الزّمخشريّ (ت538هـ) في حديثه عن أهميّة معرفة أسباب النّزول الّتي لها صلة بتماسك معماريّة النّص القرآني ممّا يساعد في إظهار المعنى[25]، ومن هنا ظهرت عنايتهم بقضيّة التّماسك النّصيّ فمنها ما كان " بين فواتح الآي وخواتمها ومرجعها – والله أعلم- إلى معنى ما رابط بينهما: عامّ أو خاصّ، عقليّ أو حسيّ أو خياليّ، وغير ذلك من أنواع العلاقات، أو التّلازم الذّهنيّ كالسّبب والمسبّب، والعلّة والمعلول، والنّظيرين والضّدين، وفائدته جعل أجزاء الكلام بعضها آخذ بأعناق بعض فيقوى بذلك الارتباط ويصير التّأليف حاله حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء"[26].

ولا تخفى إشارة الرّازي (ت328هـ) في قضيّة التّماسك النّصيّ، ونستشهد بقوله عن أهميّة سورة الفاتحة لما بعدها لتأكيد إشارته، والشاهد قوله: "... هذه السّورة المسمّاة بأمّ القرى فوجب كونها كالأصل والمعدن، وأن يكون غيرها كالجداول المتشعّبة منه، فقوله: ربّ العالمين، تنبيه على أنّ كلّ موجود سواء فإنّه دليل على ألهيته"[27].

وهو ما نجده عند السيوطي (ت911هـ) إبرازا لعلاقة سورة الفاتحة بالسّور الّتي تليها؛ فقد ذكر أنّ من أسباب بداية السّور المكيّة بالأنعام، وذلك بعد الفاتحة، أنّ كلّ بع من القرآن يبدأ بالحمد، " فالفاتحة تبدأ بالحمد، والكهف للرّبع الثّالث، وسبأ وفاطر للرّبع الرّابع"[28]، كما أكّد السوطي ارتباط السّور فيما بينها كارتباط الفاتحة بالبقرة، حيث قال: " وفيها (تعود على سورة البقرة) من الاعتلاق بسورة الفاتحة: بيان المغضوب عليهم والضّالين في قوله: ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللهِ مَنْ لَعَنَهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾60 الآية[29].

كما كان للنّقد العربيّ القديم أيضا إشارات لافتة تلخّص جهود أصحابها في إظهار التّماسك النّصيّ، وتكشف عن ملامح النّظم، ولعلّ قصّة الّتي ساقها الجاحظ تبيّن ذلك، فيقول: " وقال بعض الشّعراء لصاحبه، أنا أشعر منك، قال: ولمَ؟، قال: قال: لأنّي أقول البيت وأخاه، وأنت تقول البيت وابن عمّه، وجعل البيت أخا البيت إذا أشبهه وكان حقّه أن يوضع إلى جنبه"[30]، فقد أشار إلى رصد العناصر الّتي تُظهر تراسل معاني النّفس مشكّلة وحدة نصيّة، ففي " الأخوّة والعمومة إشارة إلى درجة قوّة التّرابط الدّلاليّ بين سلاسل المنطوقات المتتاليات، ممّا يصير به النّص كلا موحّدا"[31].

والجاحظ في ذلك قد لامس ثنائيّة السّبك والحبك والّتي ظهرتا تحت مصطلح الانسجام والاتّساق ، فهما " من أهمّ المقوّمات النّصيّة المشتركة الّتي وقف عندها اللّسانيون البلاغيّون منذ القرن الثّالث هجريّ"[32].

كما أنّ للجاحظ إشارة أخرى تصبّ في مفاهيم لسانيّات

النّص، في إشارته لقضيّة الابتداء، وقد عدّ بعض الدّارسين تلك الإشارة " أقدم الإشارات في بلاغة الابتداء"(33)، والابتداء هو الوحدة البنائيّة الأولى من النّص، وهي وحدة سمعيّة ومعنويّة تفتح للخطاب قناة الاتّصال" (34) لاعتماد النّص اعتمادا كبيرا على الجملة الافتتاحيّة الّتي تستقطب الاهتمام المتلقّي للنّص أو تصرفه عنه، وهو ما أشار إليه الجاحظ من خلال نصين أحدهما لابن المقفّع (ت139هـ) الّذي جعل البلاغة اسما جامعا لمعان تجري في وجوه كثيرة، وذكر منها ما يكون في الابتداء(35)، باعتبارها تمثّل عتبة النّص، وثانيهما نص لشبيب بن شيبة الّذي يقول فيه: " النّاس موكلون بتفضيل جودة الابتداء، وبمدح صاحبه، وأنا موكل بتفضيل جودة المقطع، وبمدح صاحبه"(36).

وفي ذلك إشارة واضحة إلى أهميّة وحدة العمل والتّماسك النّصيّ، ويذهب ابن طباطا العلوي (ت322هـ) في السّياق نفسه إلى إبراز أنّ عناصر القصيدة تتراسل على وجه يجعلها متّسقة دلاليّا تؤدي وظيفتها وفق نسق معيّن، فيقول: " أحسن الشّعر ما ينتظم فيه القول انتظاما يتّسق به أوّله مع آخره على ما ينسقه قائله، فإذا قدّم بيتا على بيت دخله الخلل...، بل يجب أن تكون القصيدة كلها كلمة واحدة في اشتباه أوّلها بآخرها، نسجا وحسنا وفصاحة وجزالة ألفاظها ودقّة معانٍ وصواب تأليف"(37).

وفي السياق نفسه أيضا يبيّن شوقي ضيف هيمنة الوحدة العضويّة على الوظائف الدّلاليّة عند ابن طباطبا، فهي تفرض هيمنة دكتاتوريّة لتحقيق التّماسك النّصيّ، فيقول: " وكأنّ ابن طباطبا تنبّه في دقّة إلى ما ردّده ولا يزال يردّده النقّاد في عصرنا من فكرة الوحدة العضويّة في القصيدة؛ بحيث تصبح القصيدة عملا محكما إحكاما، فلا تخلخل بين المعاني المتعاقبة إنّما انتظام واتّساق والتحام حتّى تصبح القصيدة كأنّها كلمة واحدة" (38)

ومن هنا يظهر أنّ انتظام القصيدة خاضع إلى " وحدة مصدرها المبدأ الّذي يصبغ جميع عناصرها بلون واحد، إذ ينساب في أطرافها جميعا كما تنساب العصارة الخضراء الّتي تغذّى الشّجرة جذعا وساقا، أغصانا وأوراقا...، فيؤدي كلّ عنصر فيها وظيفة خاصّة غير منفصلة عن الوظيفة الّتي يقوم بأدائها عنصر آخر بحيث تسير هذه الوظائف مجتمعة في اتّجاه واحد وتؤدي إلى غاية واحدة هي الأثر الكليّ الموحّد الّذي تولّده القصيدة في نفس القارئ"(39)

وعليه يمكن القول أنّ الوحدة العضويّة هي طاقة يستمدّ من خلالها النّص التّنسيق الوظيفيّ الّذي يشكّل سلطة تحكم التّواصل النّصيّ، وتتوزّع على وجه مخصوص، وبأسلوب مخصوص في انتظام شموليّ يسير وفق سيرورة متناميّة خاضعة لمبدأ التوافق والانسجام تحقيقا للتّماسك النّصيّ.

خاتمة

ويمكننا بعد هذا العرض المقتضب عن البذور النّصيّة في التّراث العربيّ الوقوف على النتائج الّتي توصّلت إليها دراستنا، والّتي سنجملها في النّقاط التّاليّة:

- هناك اختلاف واضح في تحديد مفهوم النّص؛ حيث تمظهر بمفاهيم متباينة كانت نتيجة لاختلاف الاتجاهات وتعدّد النّظريات ممّا صعب إيجاد مفهوم مانع جامع، إلاّ أنّهم لا يختلفون في أنّ النّص بنية لغويّة شاملة قابلة للتّحليل والدّراسة بمختلف المناهج.

تعدّ نظريّة النّظم للإمام عبد القاهر الجرجاني من أهمّ النّظريات الّتي تحمل ملمح يتقارب بشكل كبير مع مفاهيم الدّراسات النّصيّة المعاصرة.

- شكّلت إشارات العلماء العرب في مختلف مصنفاتهم النّحويّة والبلاغيّة والنّقديّة ممارسات نصيّة لم يسبقهم إليها أحد، عكست وعيهم بأسس الصناعة النّصيّة ومختلف مظاهرها في الدّرس اللّسانيّ، وقد كان اهتمامهم بدراسة القرآن الكريم والبحث في أسراره أهمّ تلك الممارسات الناضجة.

- إنّ في التّراث العربيّ العتيق علوما لسانيّة تستدعي وبإلحاح ضرورة قراءتها قراءة متجدّدة وبمناهج حديثة، فهي كفيلة بكشف عن أسرارها من جهة، ومن جهة أخرى تكشف عن مدى تقاطعها مع مفاهيم وجدت في الدّارسات اللّسانيّة الغربيّة حتّى وإن لم يكن ظهورها بالمصطلحات نفسها؛ لأنّ عدم وجودها كمصطلحات لا ينفي عدم وجودها كمفاهيم.

إنّ دعوة تجاوز الدّراسات اللّسانيّة حدود الجملة إلى فضاء النّص طرحت نفسها بإلحاح شديد، ولاقت آذانا صاغية بعد الانفتاح على منجزات الدّرس اللّسانيّ الغربيّ الّذي أسهم بشكل ملموس في إدراك ما يحتويه التّراث العربيّ من تحليلات ودراسات شكّلت ممارسة نصيّة اعتبرت بذورا لهذا العلم الّذي أصبح علما قائما بذاته.

تضارب المصالح

يعلن المؤلف أنه ليس لديه تضارب في المصالح.

قائمة المصادر والمراجع

أ/ الكتب والمؤلّفات

1 - أحمد عفيفي، (2011م)، نحو النّص اتّجاه جديد في الدّرس النّحويّ، مكتبة زهراء الشّرق.

2- الأخضر الصبيحي محمّد، (2008م)، مدخل إلى علم اللّغة ومجلات تطبيقه، الدّار العربيّة للعلوم، ط1، بيروت، لبنان.

3- الباقلاني أبو بكر محمّد، (1971م)، إعجاز القرآن، تح: السيد أحمد صقر، دار المعارف، ط3، القاهرة، مصر.

4- بحيري سعيد حسن،(1997م)، علم لغة النّص، الشّركة المصريّة العالميّة للنّشر، بيروت، لبنان.

5- بدوي مصطفى، (1960م)، دراسات في الشّعر والمسرح، دار المعرفة، ط1، القاهرة، مصر.

6- أبو بكر الرّازي محمّد بن يحين، (1991م)، مفاتيح الغيب، دار الغد العربيّ، ط1، القاهرة، مصر.

7- الجاحظ عمرو بن بحر، (د.ت)، البيان والتّبيّن، تح: عبد السّلام هارون ، دار الجيل، بيروت، لبنان.

8- الجرجاني عبد القاهر، (2003م)، دلائل الإعجاز، المكتبة العصريّة، صيدا، لبنان.

9- خطابي محمّد، لسانيات النّص مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثّقافي العربيّ، بيروت والدّار البيضاء، لبنان والمغرب، 1991م.

10- دي بوجراند روبارت، (1418هـ/1998م)، النّص والخطاب والإجراء، تر: تمام حسان، دار عالم الكتب، ط1، القاهرة، مصر.

11- الزّمخشري بدر الدّين محمّد بن عبد الله، (1408هـ/1988م)، البرهان في علوم القرآن، تح: مصطفى عبد القادر عطا ، دار الفكر، ط1، بيروت، لبنان.

12- سيبويه أبو بشر عثمان بن قنبر، (1985م)، الكتاب، تح: عبد السّلام هارون، مكتبة الخانجي، ط3، القاهرة، مصر.

13- السّيوطي جلال الدّين:

• أسرار ترتيب القرآن، (د.ت)، تح: عبد القادر أحمد عطا ومرزوق عليّ إبراهيم، سلسلة نوادر التّراث، دار الفضيلة للنّشر والتوزيع والتّصدير، القاهرة، مصر.

• تناسق الدّرر في تناسب السّور، (1978م)، تح: عبد القادر أحمد عطا، سلسلة نوادر التّراث، دار الاعتصام، مصر.

16- الشّافعي محمّد بن إدريس، (1358هـ/1940م)، الرّسالة، تح: أحمد محمّد شاكر، ط1، مصطفى البابلي الحلبي، مصر.

17-الشّريف الجرجاني عليّ بن محمّد، (1985م)، التّعريفات، مكتبة لبنان، بيروت، لبنان.

18- ضياء الدّين بن الأثير نصر الدّين بن محمّد، (1990م)، المثل السّائر في أدب الكاتب والشّاعر، تح: محمّد محي الدّين عبد الحميد ، المكتبة العصريّة، ط1، بيروت، لبنان.

19- ضيف شوقي:

• (1992م)، البلاغة تطوّر وتاريخ، تح: عبد السّلام هارون، دار المعارف، ط8، القاهرة، مصر.

• (1964م)، في النّقد الأدبيّ، دار المعارف، القاهرة، مصر.

20- ابن طباطبا العلوي، (2982م)، عيار الشّعر، تح: عبّاس عبد السّائر ، دار الكتب العلميّة، ط1، بيروت، لبنان.

21- فولفغانغ إيزر، (1994م)، فعل القراءة – نظرية جمال التجارب في الأدب، تر: حميد لحميداني والجلالي الكدية، منشورات مكتبة المناهل.

22- الفيروز آبادي مجد الدّين أبو طاهر مجيد الدّين، (1997م)، القاموس المحيط، دار إحياء التّراث العربيّ، بيرت، لبنان.

23- القاضي عبد الجبار أبو الحسن بن أحمد، (1960م)، المغني في أبواب التّوحيد والعدل، تح: أمين الخولي، مطبعة دار الكتب، ط1، القاهرة، مصر.

24- كريستيفا جوليا، (د.ت)، علم النّص، تر: فريد الزاهي، دار توبقال للنّشر، الدّار البيضاء، المغرب.

25- ابن منظور جمال الدّين، (د.ت)، لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان.

ب/ المجلّات والدوريات

1- عليان يوسف سليمان، (2011م)، النّحو العربيّ بين نحو الجملة ونحو النّص مثل من كتاب سيبويه، المجلّة الأردنيّة، الأردن.

2- محمّد العبد، (1994م)، حبك النّص، مجلّة فصول، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، القاهرة، مصر.

الهوامش

1- ابن منظور جمال الدّين، (د.ت)، لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، (108/7-109). (مادّة: ن ص ص). وكذا ينظر : الفيروز آبادي مجد الدّين أبو طاهر مجيد الدّين، (1997م)، القاموس المحيط، دار إحياء التّراث العربيّ، بيرت، لبنان، (ص:858). (مادّة: ن ص ص).

2- الشّريف الجرجاني عليّ بن محمّد، (1985م)، التّعريفات، مكتبة لبنان، بيروت، لبنان، (ص:130).

3- عليان يوسف سليمان، (2011م)، النّحو العربيّ بين نحو الجملة ونحو النّص مثل من كتاب سيبويه، المجلّة الأردنيّة، ع1، الأردن، (ص:193-193).

4- فولفغانغ إيزر، (1994م)، فعل القراءة - نظرية جمال التجارب في الأدب، تر: حميد لحميداني والجلالي الكدية، منشورات مكتبة المناهل، (ص:11).

5- كريستيفا جوليا، (د.ت)، علم النّص، تر: فريد الزاهي، دار توبقال للنّشر، الدّار البيضاء، المغرب، (ص:13).

6-الصبيحي محمّد، (2008م)، مدخل إلى علم اللّغة ومجلات تطبيقه، الدّار العربيّة للعلوم، ط1، بيروت، لبنان، (ص:9).

7- بحيري سعيد حسن، (1997م)، علم لغة النّص، الشّركة المصريّة العالميّة للنّشر، بيروت، لبنان، (ص:115).

8-دي بوجراند روبارت، (1418ه/1998م)، النّص والخطاب والإجراء، تر: تمام حسان، دار عالم الكتب، ط1، القاهرة، مصر، (ص:105).

9-ينظر: المرجع نفسه، (ص:105).

10- الشّافعي محمّد بن إدريس، (1358ه/1940م)، الرّسالة، تح: أحمد محمّد شاكر، مصطفى البابلي الحلبي، ط1، مصر، (ص:51-52).

11- سيبويه أبو بشر عثمان بن قنبر، (1985م)، الكتاب، تح: عبد السّلام هارون، مكتبة الخانجي، ط3، القاهرة، مصر، (1/25-26).

12- سيبويه، الكتاب، (2/130).

13- أحمد عفيفي، (2001م)، نحو النّص اتّجاه جديد في الدّرس النّحويّ، مكتبة زهراء الشّرق، (ص:116).

14- ينظر: خطابي محمّد، (1991م)، لسانيات النّص مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثّقافي العربيّ، بيروت والدّار البيضاء، لبنان والمغرب، (ص:16-18).

15- ينظر: المرجع نفسه، (ص:17).

16- ينظر: سيبويه، الكتاب، (1/23).

17- الجرجاني عبد القاهر، (2003م)، دلائل الإعجاز، المكتبة العصريّة، صيدا، لبنان، (ص: 127).

18- المصدر نفسه، (ص: 102).

19- المصدر نفسه، (ص: 39).

20- الجرجاني، دلائل الإعجاز، (ص: 137).

21- الباقلاني أبو بكر محمّد، (1971م)، إعجاز القرآن، تح: السيد أحمد صقر، دار المعارف، ط3، القاهرة، مصر، (ص: 205).

22- ينظر: ضيف شوقي، (1964م)، في النّقد الأدبيّ، دار المعارف، القاهرة، مصر، (ص: 30).

23- ضياء الدّين بن الأثير نصر الدّين بن محمّد، (1990م)، لمثل السّائر في أدب الكاتب والشّاعر، تح: محمّد محي الدّين عبد الحميد ، المكتبة العصريّة، ط1، بيروت، لبنان، (1/151).

24- القاضي عبد الجبار أبو الحسن بن أحمد، (1960م)، المغني في أبواب التّوحيد والعدل، تح: أمين الخولي ، مطبعة دار الكتب، ط1، القاهرة، مصر، (6/197).

25- ينظر: الزّمخشري بدر الدّين محمّد بن عبد الله، (1408ه/1988م)، البرهان في علوم القرآن، تح: مصطفى عبد القادر عطا ، دار الفكر، ط1، بيروت، لبنان، (1/45)، و(1/377-386).

26- القاضي عبد الجبار، المغني في أبواب التّوحيد والعدل، (1/35).

27- أبو بكر الرّازي محمّد بن يحي، (1991م)، مفاتيح الغيب، دار الغد العربيّ، ط1، القاهرة، مصر، (1/227).

28- السّيوطي جلال الدّين، (1978م)، تناسق الدّرر في تناسب السّور، تح: عبد القادر أحمد عطا، سلسلة نوادر التّراث، دار الاعتصام، مصر، (ص:100).

29- السّيوطي جلال الدّين، (د.ت)، أسرار ترتيب القرآن، تح: عبد القادر أحمد عطا ومرزوق عليّ إبراهيم، سلسلة نوادر التّراث، دار الفضيلة للنّشر والتوزيع والتّصدير، القاهرة، مصر، (ص:76).

30- الجاحظ عمرو بن بحر، (د.ت)، البيان والتّبيّن، تح: عبد السّلام هارون ، دار الجيل، بيروت، لبنان، (1/ 68).

31- محمّد العبد،(1994م)، حبك النّص، مجلّة فصول، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، ع54، القاهرة، مصر، (ص:59).

32- المرجع نفسه، (ص:59).

33- محمّد العبد، حبك النّص، (ص:65).

34- المرجع نفسه، (ص:65).

35- ينظر: المرجع نفسه، (ص:65).

36- البيان والتّبيّن، الجاحظ، (1/112).

37- ابن طباطبا العلوي، (1982م)، عيار الشّعر، تح: عبّاس عبد السّائر، دار الكتب العلميّة، ط1، بيروت، لبنان، (ص: 131).

38- ضيف شوقي، (1992م)، البلاغة تطوّر وتاريخ، تح: عبد السّلام هارون، دار المعارف، ط8، القاهرة، مصر، (ص: 127).

39- بدوي مصطفى، (1960م)، دراسات في الشّعر والمسرح، دار المعرفة، ط1، القاهرة، مصر، (ص:7).

ـ كيفية الاستشهاد بهذا المقال حسب أسلوب APA

عقيلة أرزقي (2023)، المنطلقات النّصيّة في التّراث اللّسانيّ العربيّ ، مجلة الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية، المجلد 15، العدد 02، جامعة حسيبة بن بوعلي بالشلف، الجزائر، الصفحات: 713-719.